محمود سامى البـارودى

١٨٤٠ — ١٩٠٤

محمود سامى البـارودى هو إمام الشعراء المحدثين قاطبة ، وباكورة الأعلام فى دولة الشعر الحديث ، وأول من نهض به وجارى فى نظمه فحول الشعراء المتقدمين ، فبعث النهضة الشعرية من مرقدها بعد طول الخمود .

ولد سنة ١٨٤٠ ، وهو ابن حسن بك حسنى من ضباط المدفعية فى الجيش المصرى ، وحفيد عبد الله الجركسى أحد الـكشاف فى عهد محمد على ، وسمى البارودى نسبة إلى إيتاى البارود التى كان أحد أجداده الأمير مراد البارودى ملتزماً لها فى عهد الالتزام .

وقد تلقى العلم أول ما تلقاه على أيدى أساتذة خصوصيين فى سراى والده بغيط العدة (القريبة من باب الخلق) والمعروفة بسراى البارودى ، ولما بلغ الثانية عشر من عمره انتظم فى المدرسة الحربية ، وتخرج منها سنة ١٨٥٥ ، والتحق بخدمة الجيش المصرى ، وأخذ يترقى حتى بلغ رتبة أميرالاى ، وخاض غمار الحروب فى ثورة كريد سنة ١٨٦٦ ، إذ كان ضابطا فى الجيش الذى أنفذته مصر لإخماد تلك الثورة وانتصر على الثوار فى مواقع عدة .

ولما شبت الحرب بين تركيا والروسيا سـنة ١٨٧٧ أنفذت مصر جيشا لنجدة تركيا كان البارودى من ضباطه ، وأبلى فى الحرب بلاء حسنا ، وصقلت المعارك مواهبه الشعرية ، ولما عاد إلى مصر رقى إلى رتبة اللواء ، وعين مديراً للشرقية ، وكان محافظا للعاصمة حين ألف شريف باشا وزارته الثانية سنة ١٨٧٩ فى أوائل عهد الخديو توفيق ، فاختاره فيها وزيرا للمعارف والأوقاف ، واشترك فى حوادث الثورة العرابية ، وكان من زعمائها المشار إليهم

بالبنان ، وتولى رآسة وزارة الثورة سنة ١٨٨٢ ، ثم كانت الهزيمة ، ونفى مع زملائه إلى جزيرة سيلان (سرنديب) ، وظل فى منفاه نيفا وسبعة عشر عاما ، وأسبغ عليه النفى سمات التضحية والبطولة[١] .

الحنين إلى الوطن

كانت حياة زعماء الثورة العرابية فى منفاهم حياة ألم وحزن ، إذ انقطعت صلتهم بالناس ، وطال اغترابهم عن أرض الوطن ، و بعدت الشقة بينهم و بين أهليهم ومواطنيهم ، ولم يكترث لهم أحد ، ولم يعطف عليهم أحد (والناس مع الغالب !) ، وجادت قريحة البارودى بشعر مؤثر فى الحنين إلى الوطن ، والحزن على فراقه ، مما يعد آية فى البلاغة ، و بلغت سليقته الشعرية فى منفاه ذروة العظمة والجلال .

قال يصف الرحيل عن أرض الوطن :

مَحَا البينُ ما أبقت عيون المها منى ... فشبْتُ ولم أقض اللُّبانة مِن سنِّى
عَنـــاء و يأسٌ واشتياقٌ وغربةٌ ... ألا شَدَّ ما ألقاه فى الدهر من غبن

إلى أن قال :

ولما وقفنا للوداع وأسبلتْ ... مدامعنـــا فوق الترائب كالمزن
أهبت بصـــبرى أن يعود فبزَّنى ... وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن
وما هى إلا خطـــوة ثم أقلعت ... بنا عن خطوط الحىّ أجنحة السفن
فكم مهجة من زفرة الشوق فى لظى ... وكم مقلة من غزرة الدمع فى دجن
وما كنت جربت النوى قبل هذه ... فلما دهتنى كدت أقضى من الحزن
ولكننى راجعت حـــلمى وَرَدَّنى ... إلى الحـزم رأى لا يحوم على أفن
ولولا بنيات وشيب عـــواطل ... لمـــا قرعت نفسى على فائت سنى

الصبر على الشدائد

وتجلت فى منفاه صفاته العالية من الشمم ، وعلو النفس ، واحتمل آلام النفى

---

(١) راجع ترجمته تفصيلا فى كتابنا (الثورة العرابية ، والاحتلال الإنجليزى) .

بشجاعة و إباء ، وصبر و إيمان ، وله فى ذلك شعر يفيض بهذه المعانى السامية .

قال وهو فى سرنديب (سيلان) :

لم أقترف زِلَّة تقضى علىَّ بمـــا ... أصبحت فيه فماذا الويل والحَرَب ؟
فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى ... ذنب أدان به ظلما وأغـترب ؟
فلا يظن بى الحســـاد مندمة ... فإننى صـــابر فى الله محتسب
أثريتُ مجدا فلم أعبأ بما سلبَتْ ... أيدى الحوادث منى فهو مكتسب
لا يخفض البؤس نفسا وهى عالية ... ولا يشيد بذكر الخامل النشب (١)

وقال مشيرا إلى مصادرة أملاكه :

يا ناصر الحـــق على الباطل ... خُذْ لى بحق من يدى ماطلى
أخرجنى عما حـــوته يدى ... من كسبى الحر بلا ناطـل (٢)
من غير ما ذنب سوى منطق ... ذى رونق كالصارم القاطل (٣)
فإن أكن جُرِّدت من ثروتى ... ففضـــل ربى حلية العاطل

وقال من قصيدة أخرى فى مقاومة الظلم والصمود أمام المحن والخطوب :

إذا المرء لم يدفع يدَ الجـور إن سَطَتْ ... عليـــه فلا يأسف إذا ضاع مجدُهُ
ومن ذلَّ خوف الموت كانت حياته ... أضرَّ عليه من حمـــام يؤدُّهُ
وأقتل داء رؤية العـــين ظالما ... يسىء ويُتلَى فى المحافل حمـــده
عـــلام يعيش المرء فى الدهر خاملا ... أيفرح فى الدنيـــا بيوم يَعُدُه ؟
عَفاءٌ على الدنيـــا إذا المرء لم يعش ... بها بطلا يحمى الحقيقة شَـــدُّه

وقال فى هذا المعنى :

أمطرى لؤلؤا جبـــالَ (سرنديـ ... ـب) وفيضى آبار (تكرور) تبرا
أنا إن عشت لست أعـدم قوتا ... وإذا مت لست أعـــدم قبرا
هِمَّتى همـــــة الملوك ونفسى ... نفس حرٍّ ترى المذلة كفرا

---

(١) النشب : المال والعقار .
(٢) الناطل : الشىء القليل .
(٣) القاطل : القاطع .

ومن قوله فى الحنين إلى الوطن والصبر على الشدائد :

فيا دموع القطر سيلى دما ... ويابنات الأيك نُوحى معى
وأنت يا نَسْمة (وادى) الغضا ... مُرِّى بريَّاك على مربعى
وأنت يا عصفورة المنحنَى ... بالله غَنِّى طربا واسجعى
وأنت يا عين إذا لم تنى ... بذمة الدمع فلا تهجعى
أبيت أرعى النجم فى سدفة ... ضلَّ بها الصبح فلم يطلع

* * *

فهل إلى الأشواق من غاية ... أم هل إلى الأوطان من مرجع؟
لا تأسَ يا قلبُ على ما مضى ... لا بد للمحنة من مقطع

يتمنى أن يرى مصر

وقال فى منفاه يتمنى أن يرى مصر :

يا حبذا جرعةٌ من ماء محْنِية ... وضجعة فوق برد الرمل بالقاع[1]
ونَسْمةٌ كشميم الخلد قد حملت ... ريَّا الأزاهر من مِيثٍ وأجراع[2]
يا هل أرانى بذاك الحى مجتمعا ... بأهل ودى من قومى وأشياعى ؟

وقال فى هذا المعنى :

أبيت حزينا فى (سرنديب) ساهرا ... طوال الليالى والخليُّون هُجَّدُ
إذا خطرت من نحو (حلوان) نسمة ... نَزَتْ بين قلبى شعلة تتوقد
شبابٌ وإخوانٌ رزئتُ ودادهم ... وكل امرىء فى الدهر يشقى و يسعد !

ومن قصيدة له فى هذا المعنى قالها فى منفاه يتشوق إلى الوطن :

هل من طبيبٍ لداء الحب أوراقى ... يشفى عليلا أخا حزن و إيراق[3]
قد كان أبقى الهوى من مهجتى رمقا ... حتى جرى البَيْنُ فاستولى على الباقى

---

(١) المحنية : ما انحنى من الأرض .
(٢) الميث : جمع ميثاء الأرض اللينة .
(٣) الراقى : اسم فاعل من رقاه يرقيه أى عوّذه فهو راق .

وفيها يقول :

يا روضة النيل لا مَسَّتْكِ بائقةٌ ... ولا عدتك سماءٌ ذات إغداق[1]
ولا برحتِ من الأوراق فى حُلَلٍ ... من سندس عبقرىٍّ الوشى برَّاق
يا حبذا نَسَمٌ من جوِّها عَبِقٌ ... يسرى على جدول بالماء دفَّاق
مَرْعَى جيادى ومأوى جيرتى وحِمَى ... قومى ومنبتُ آدابى وأعراقى
أصبو إليها على بُعدٍ ويعجبنى ... أنى أعيش بها فى ثوب إملاق
وكيف أنسى ديارًا قد تركتُ بها ... أهلًا كراماً لهم ودى وإشفاقى

* * *

فيا بريدَ الصَّبا[2] بلِّغ ذوِى رحمى ... أنى مقيم على عهدى وميثاق
وأنتَ يا طائرا يبكى على فَنَنٍ ... نفسى فداؤك من ساقٍ على ساق
أذكرتَنى ما مضى والشمل مجتمعٌ ... بمصر والحربُ لم تنهض على ساق

وقال أيضا فى منفاه :

رُدُّوا علىَّ الصبا من عصرى الخالى ... وهل يعود سوادُ اللمة البالى ؟
ماض من العيش ما لاحت مخايله ... فى صفحة الفكر إلا هاج بلبالى
أدهى المصائب غدر قبله ثقة ... وأقبح الظلم صَدٌّ بعد إقبال

* * *

لا عيب فىّ سوى حرية ملكت ... أعنتى عن قبول الذل بالمال
قلبى سليم ونفسى حرة ويدى ... مأمونة ولسانى غير ختال
بلوت دهرى فما أحمدت سيرته ... فى سابق من لياليه ولا تالى
حلبت شطريه من يسر ومعسرة ... وذقت طعميه من خصب وإمحال
لم يبق لى أرب فى الدهر أطلبه ... إلا صحابة حر صادق الخال
وأين أدرك ما أبغيه من وطر ؟ ... والصدق فى الدهر أعيا كل محتال

* * *

(١) البائقة : الداهية والبلية . ولا عدتك : اى لا تجاوزتك .
(٢) الصبا بالفتح : ريح معروفة .

لا فى (سرنديب) لى إلفٌ أجاذبه ... فضل الحديث ولا خلّ فيرعى لى
أبيت منفردا فى رأس شاهقة ... مثل القطامى فوق المرأ العالى
إذا تلفّتُّ لم أبصر سوى صور ... فى الذهن يرسمها نقاش آمالى

* * *

علام أجزع والأيام تشهد لى ... بصدق ما كان من وسمى وإغفالى
راجعتُ فهرس آثارى فما لمحت ... بصيرتى فيه ما يُزْرى بأعمالى
فكيف ينكر قومى فضل بادرتى ... وقد سرتْ حِكَمى فيهم وأمثالى
أنا ابن قولى وحسبى فى الفخار به ... وإن غدوت كريم العم والخال
ولى من الشعر آيات مفصلة ... تلوح فى وجنة الأيام كالخال
ينسى لها الفاقد المحزون لوعته ... ويهتدى بسناها كل قوال
فانظر لقولى تجد نفسى مصورة ... فى صفحتيه فقولى خط تمثالى
ولا تغرنك فى الدنيا مشاكلة ... بين الأنام فليس النبع كالضال
إن ابن آدم لولا عقله شَبَحٌ ... مركّب من عظام ذات أوصال

ومن قصيدة له يتشوق إلى مصر :

خليلىّ هذا الشوق لا شك قاتلى ... فميلا إلى (المقياس) إن خفتما فقدى
فى ذلك (الوادى) الذى أنْبَتَ الهوى ... شفائى من سقمى وبرئى من وجدى

وقال فى هذا المعنى :

طال شوقى إلى الديار ولكن ... أين من (مصر) من أقام (بكندى)[1]
حبذا (النيل) حين يجرى فيبدى ... رونق السيف واهتزاز الفرند
تتثنى الغصون فى حافتيه ... كالعذارى يسحبن وشى الفرند
قلدتها يد الغمام عقودا ... هى أبهى من كل عقد وبند
كيف لا تهتف الحمام عليه ... وهى تسقى به سلافة قند
كلما صورته نفسى لعينى ... قدح الشوق فى الفؤاد بزند

---

(١) كندى مدينة صغيرة فى جزيرة سيلان (سرنديب) .

الحنين إلى الأهل والولد

وقال فى منفاه وقد رأى فى المنام ابنته الوسطى :

تأوّبَ[1] طيفٌ من (سميرة) زائرٌ ... وما الطيف إلا ما تُريه الخواطر
طوى سُدْفةَ[2] الظلماء والليل ضاربٌ ... بأرواقه والنجم بالأفق حائر
فيالك من طيفٍ ألمّ ودونه ... محيطٌ من البحر الجنوبى زاخر
تخطّى إلىّ الأرض وَجْداً وما له ... سوى نزوات الشوق حادٍ وزاجر
ألمّ ولم يلبث وسار وليته ... أقام ولو طالت علىّ الدياجر
تحمل أهوالَ الظلام مخاطرا ... وعهدى بمن جادت به لا تخاطر
«خماسية[3]» لم تدر ما الليل والسرى ... ولم تنحسر عن صفحتيها الستائر
فيا بُعْدَ ما بينى وبين أحِبَّتى ... ويا قرب ما التفّت عليه الضمائر
ولولا أمانى النفس وهى حياتها ... لما طار لى فوق البسيطة طائر
فإن تكن الأيام فرّقن بيننا ... فكل امرىء يوما إلى الله صائر

إلى أن قال :

فلا يشمت الأعداء بى فلربما ... وصلتُ لما أرجوه مما أحاذر
فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه ... وتنهض بالمرء الجدودُ العواثر
ولى أمل فى الله تحيا به المُنى ... ويُشرق وجه الظن والخطبُ كاشرُ
إذا المرء لم يركن إلى الله فى الذى ... يحاذره من دهره فهو خاسر
وإن هو لم يصبر على ما أصابه ... فليس له فى معرض الحق ناصر
ومن لم يذق حلو الزمان ومُرَّه ... فما هو إلا طائش اللب نافر
علىَّ طِلابُ العزّ من مستقره ... ولا ذنب لى إن عارضتنى المقادر

إلى أن قال :

فإن كنت قد أصبحتُ فلّ[4] رزية ... تقاسمها فى الأهل بادٍ وحاضر

---

(١) تأوب : أى أتى ليلا
(٢) السدفة : الستر .
(٣) أى بنت خمس سنوات .
(٤) فل : أى منهزم .

obeikandl.com

فكم بطلٍ فلَّ الزمان شَبَاتَهُ ... وكم سيِّد دارت عليه الدوائر
فسوف يبين الحق يوما لناظرٍ ... وتَنْزُو[1] بعَوراء الحقود السرائر
وما هى إلا غمرة ثم تنجلى ... غيابتها والله من شاء ناصر

فقد حاطنى فى ظلمة الحبس بعد ما ... ترامت بأفلاذ القلوب الحناجر

* * *

فهيلاً بنى الدنيا علينا فإننا ... إلى غاية تَنْفَتُّ فيها المرائر
تطول بها الأنفاس بهرًا[2] وتلتوى ... على فلكة الساقين فيها المآزر
هنالك يعلو الحق والحق واضحٌ ... ويسفُل كعب الزور والزور عاثر
وعما قليل ينتهى الأمر كله ... فما أولٌ إلا ويتلوه آخر

يشيد بعظمة الأهرام

قال يصف (الأهرام) ويشيد بعظمتها :

سل (الجيزة) الفيحاء عن (هرمى) مصر ... لعلك تدرى غيب ما لم تكن تدرى
بناءان رَدَّا صولة الدهر عنهما ... ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر
أقاما على رغم الخطوب ليشهدا ... لبانيهما بين البرية بالفخر
فكم أمم فى الدهر بادت وأعصر ... خلت وهما أعجوبة العين والفكر
تلوح لآثار العقول عليهما ... أساطير لا تنفك تتلى إلى الحشر
رموز لو استطلعت مكنون سرها ... لأبصرت مجموع الخلائق فى سطر
فما من بناء كان أو هو كائن ... يدانيهما عند التأمل والخبر

وختمها بقوله :

فيانسمات الفجر أدى تحيتى ... إلى ذلك البرج المطل على النهر
ويالمعات البرق إن جزت بالحمى ... فصوبى عليها بالنثار من القطر
عليها سلام من فؤاد متيم ... بها لا بربات القلائد والشذر[3]

(١) تنزو تطمح يقال : نزا به قلبه طمح .
(٢) بهرا بالضم تتابع الأنفاس من الإعياء فى اللسان
(٣) الشذر : صغار اللؤلؤ .

ولا برحت فى الدهر وهى خوالد خود الدرای والأوابد من شعری

شعر القتال

ومن قصيدة له فى وصف إحدى المعارك التى خاضها ، ويبدو منها مبلغ شجاعته وصبره على أهوال القتال :

ولمـــا تداعى القوم واشتبك القنا ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
وزُيّن للناس الفـــرار من الردى وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
ودارت بنا الأرض الفضـــاء كأننا ســقينا بكأس لا يفيق لها شرب
صبرت لها حتى تجلت سماؤها وإنى صبـــور إن ألم بى الخطب

الفساد فى عهد اسماعيل

وقال من قصيدة يصف سوء الحكم وظلم الحكام فى عهد إسماعيل ، وينصح قومه بالمطالبة بحقوقهم والمبادرة بإصلاح شؤونهم قبل أن تسوء العقبى ، وهى من شعره السياسى الوطنى الرائع :

قامت به من رجال الســوء طائفة أدهى على النفس من بؤس على ثـكل
من كل وغـــد يكاد الدست يدفعه بغضا ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت قواعـــد الملك حتى ظل فى خلل

إلى أن قال :

فبادروا الأمر قبـــل الغوث وانتزعوا شـكالة الريث فالدنيا مع العجل
وطالبوا بحقـــوق أصبحت غرضاً لـكل منـــــتزع سهماً ومختتل
حتى تعود سمـــــاء الأمن ضاحية ويرفل العدل فى ضـــاف من الحلل

الجيش والدستور

وقال فى أوائل عهد الخديو توفيق يدعو إلى الشورى وتقوية الجيش :

أمران ما اجتمعا لقائد أمـــة إلا جنى بهما ثمـار السؤدد

(جمع) يكون الأمر فيما بينهم (شورى) وجند للعدو بمرصد

يندد بالدسائس

وقال من قصيدة يشكو فيها من الدسائس التى كانت تحاك حوله :

نقموا على حميتى فتألبـــوا حزبا على وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريتهم فلمـا صادفوا سمعا يميل إلى الملام توسـعوا
لا عيب فىَّ سوى حمية ماجد والسيف يغلبه المضاء فيقطع

يحث على الاعتدال ، ويستنكر الذل

قال فى هذا المعنى :

إذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تكن لدودا ولا تدفع يد اللين بالقسر
ولا تحتقر ذا فاقة فلربمـــــا لقيتَ به شهما يبرّ على المثرى
فربَّ فقـــير يملأ القلب حكمةً وربَّ غنى لا يريش ولا يبرى[1]
وكن وسطا لا مشرئبا إلى السُّهى ولا قانعا يبغى التزلف للصُّفر[2]
فأحمد أخلاق الفتى ما تـكافأت بمنزلةٍ بين التواضـع والـكبر
ولا تعترف بالذل فى طلب الغنى فإن الغنى فى الذل شرٌّ من الفقر

العودة إلى الوطن

وقد عاد إلى الوطن سنة ١٩٠٠ بعد أن فقد نور عينيه فى منفاه ، فاستقبل مصر بقصيدته التى مطلعها :

أبابل مرأى العين أم هـذه مصر فإنى أرى فيها عيونا هى السحر
فإن يك موسى أبطل السحر مرة فذلك عصر المعجزات وذا عصر

إلى أن قال :

وإنى امرؤ تأبى لى الضيم صولة مواقعها فى كل معترك حمـر

---

(١) أى لا ينفع ولا يضر .
(٢) القانع هنا : السائل المتذلل ، والصفر : الذهب .

أبيٌّ على الحدثان لايستفزنى عظيم ولا يأوى إلى ساحتى ذعر

عبرة الحوادث

ومن قصيدة له قالها بعد عودته من المنفى تفيض توجعا لحالة البلاد بعد أن جثم الاحتلال على صدرها ، وقد تذكر عند ما مر بقصر الجزيرة أيام إسماعيل حين كان فى أوج سلطانه ، وما انتهى إليه أمره من خلع وخسران ، وتذكر أخطاءه التى كان لها أثرها فى التمهيد للاحتلال ، فلم يترحم على عهده ، ونظم هذه القصيدة معتبرا ومذكرا ، وهى من آيات الشعر فى العظة والاعتبار ، قال :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع ؟ هيهات قد ذهب المتبوع والتبع !
هذى (الجزيرة) فانظر هل ترى أحدا ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع ؟
أضحت خلاء وكانت قبل منزلة للملك منها لوفد العز مرتبع
فلا مجيب يرد القول عن نبأ ولا سميع إذا ناديت يستمع
كانت منازل أملاك إذا صدعوا بالأمر كادت قلوب الناس تنصدع
عانوا بها حقبة حتى إذا نهضت طير الحوادث من أوكارها وقعوا
لو أنهم علموا مقدار ما فغرت يد الحوادث ما شادوا ولا رفعوا
دارت عليهم رحى الأيام فانشعبوا أيدى سبا وتخلت عنهم الشيع
كانت لهم عصب يستدفعون بها كيد العدو فما ضروا ولا نفعوا

* * *

أين المعاقل بل أين الجحافل بل أين المناصل والخطية الشرع ؟
لا شىء يدفع كيد الدهر إن عصفت أحداثه أو يقى من شر ما يقع
زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع

والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر وإنما صفوه بين الورى لمع
لو كان للمرء فكر فى عواقبه ما شاب أخلاقه حرص ولا طمع
وكيف يدرك ما فى الغيب من حدث من لم يزل بغرور العيش ينخدع

دهـــر يغر وآمال تسر وأعـ ـمار تمر وأيام لهـــا خدع
يسعى الفتى لأمـــور قد تضر به وليس يعـــلم ما يأتى وما يدع

* * *

يا أيها الســـادر المزورّ من صلف مهلا فإنك بالأيام منخـــــدع
دع ما يريب وخـــذ فيما خلقت له لعل قلبك بالإيمان ينتفع
إن الحياة لثوب ســـوف تخلعه وكل ثوب إذا مارث ينخلع

وظل البارودى بعد عودته من المنفى فى عزلة عن الناس ، لا يجتمع إلا بالصفوة المختارة من الأدباء والشعراء والحافظين لعهده ، إلى أن كانت وفاته سنة ١٩٠٤ ، فخلف مجدا لا يبلى على الزمان .